الفصل الثامن

الأقنعة المكانية

لم يُلتفت إلى أهمية المكان في الأدب إلا مؤخراً، على الرغم من أهمية المكان الذي هو الحاضنة لكل شخصية وحدث، والذي لم يعد يشكل خلفية الأحداث والأشخاص فحسب، بل والفاعل فيها أيضاً.

ويمكن تصنيف الأمكنة التي تقنّع بعض الشعراء المعاصرين بها في ثلاثة أنواع هي:

1- المدن.

2- والطبيعة.

3- والبحار.

1- المدن:

لم يتخذ الشعراء المعاصرون المدن أقنعة، سوى البياتي الذي ذكرها عابراً في كتابه (تجربتي الشعرية)[1]. ولكنه لم يحدّد وظيفة المكان في الشعر، ولا عرّف بالمكان قناعاً فنياً، «أما أسماء المدن والأنهار التي ذكرها فقد استخدمها في غير أسلوب القناع. ولو كان هذا الأسلوب يتقبّل هذه المضامين كلها لأصبح أسلوباً فضفاضاً يفتقد القيمة الفنية الخاصة، فضلاً عن أن ما سوى الشخصية التاريخية لا يمتلك البعد الفكري والصورة المعبرة التي يمكن إيصالها واضحة إلى المتلقي كما تفعل ذلك الشخصية التاريخية»[2].

---

[1] عبد الوهاب البياتي - ديوانه، دار العودة - بيروت 1970، ص2 / 36.

[2] علي حداد - أثر التراث في الشعر العراقي الحديث، ص 157.

ولكن المكان إذا لم يُتخذ أقنعة، فقد اتخذ رموزاً تحمل دلالات معينة يقصدها الشاعر، فجيكور مثلاً في قصيدة السياب (جيكور والمدينة)[1] هي رمز لكل المعاني والقيم الروحية النبيلة التي تقابل القيم المادية الجامدة التي ترمز إليها المدينة. و(جيكور) في قصيدة السياب (تموز جيكور)[2] ليست القرية الجنوبية التي تستلقي تحت ظلال سعف نخيل البصرة وحسب، بل هي البصرة، والعراق، والواقع العربي الذي يعاني من الاختناق والرعب.

وإذا كان السياب قد جعل من قريته (جيكور) مكاناً فاضلاً، ومستودعاً للقيم، فقد جعل البياتي من (نيسابور) مدينة فاضلة تنهض على الرغبة في الحرية والعدالة والكرامة، حيث لا مخبرين فيها ولا خصيان، كما جعل من (بابل) مدينة ملعونة:

تعجّ بالذباب والأصفار والحريم
تفتح للغزاة ساقيها وللطغاة
تحمل حملاً كاذباً في كل فجر[3]

2- الطبيعة:

الطبيعة بالنسبة للإنسان بمثابة الأم الرؤوم التي تآلف معها إلى حد الاندماج بها. فكان من الطبيعي أن يلجأ إليها كلما حاق به القلق، واشتدت عليه الأمور، وهو يشعر دوماً بالحنين إليها، سواء كانت صحراء قاحلة، أو ديراً قفراً، أو رياضاً خضراء، وقد وقف الشاعر الجاهلي أمامها يصفها ويصف مشاعره نحوها، وكذلك فعل الشاعر الأندلسي في رياضه الغنّاء، ومثلهما فعل الشاعر الرومانسي الحديث الذي لجأ إلى أحضان الطبيعة هرباً من صخب المدينة وقسوة قلبها.

ويكاد الشاعر البحريني ينفرد في استخدامه أقنعة الطبيعة. فهناك إجماع عام بين شعراء البحرين على اتخاذ (النخلة) و(البحر) قناعين رئيسيين في معظم قصائد القناع التي كتبوها، فقد كانت النخلة والبحر مصدر رزق البحريني على مرّ العصور[4].

وقد تميّز الشاعر علي الشرقاوي بتجاوبه مع الطبيعة، واحتلت (النخلة) مكان

---

[1] بدر شاكر السياب - ديوانه - دار العودة - بيروت 1970، ص 1 / 414.
[2] نفسه، ص 1 / 410.
[3] عبد الوهاب البياتي - ديوانه - دار العودة - بيروت 1970، ص 2 / 400.
[4] علوي الهاشمي - ما قالته النخلة للبحر - دار الحرية - بغداد 1981، ص 20.

الصدارة في جميع قصائده المقنعة: ففي مجموعته الشعرية الأولى (الرعد في مواسم القحط) الصادر عام 1975 يلامس حدود القناع من خلال الرمز الموسّع، وذلك في قصيدته (دعوة لدخول جماعي إلى البحر)، ثم أخذت مساحة القناع تتسع في تجربته، فكتب (السهروردي يستشرف) و(أبو ذر يعبر المستطيلات)، كما عمد إلى استدعاء الشخصيات المعاصرة، واتخذها أقنعة في (موزة تدخل في اللازورد) و(تقاسيم ضاحي بن وليد الجديدة). وقد ضمّ ديوانه (نخلة القلب) الصادر عام 1981 وديوانه (هي الهجس والاحتمال) الصادر عام 1983 معظم تجاربه في قصائد القناع.

ولكن سلبية قصيدة القناع عند الشرقاوي تظهر في ظهور صوت الشاعر على مسار القصيدة، حيث يعتمد ضميري المخاطب والمتكلم:

لن أفاجأ لو قيل لي إن هذا الجنون هي
ففي كل ما كان وما سيكون أنا حجر الزاوية
وأنتِ جحيمٌ لذيذٌ على القلب
والنار كيف تُسمّى إذا لم تكن حامية[1]

3- البحار:

تشكل البحار باباً واسعاً ضمن المكان في الأدب، وعلى الخصوص في السرد الروائي المعاصر. أما في الشعر فقد اتخذ عز الدين المناصرة (البحر الميت) قناعاً يتحدث من خلاله، وذلك في قصيدته (مذكرات البحر الميت)[2] يحكي فيها (البحر الميت) عن ذكرياته مع جده، وجدته، وأبيه، وأمه. فيقول إن جده (كنعان) كان بحاراً وتاجراً، وكان يقرأ الشعر الرصين، ويصطاد الحمام في براري أورشليم، ويواقع زوجات الوزراء، وأن (جدّته) من أصل آشوري، ترعى البقر في بادية الشام، وتكتب على الطين أشعاراً حزينة، وترقص في ملاهي واق الواق. عيناها زرقاوان كالبحر الأبيض المتوسط. وهي تتقن الهيروغليفية. وأن (أمه) ذات الضفائر السوداء، تضمّه في ليالي الشتاء، ولكنها بعد أن قرأت مسرحيات سوفوكليس أصبحت تخافه، وتلبس السواد، وتقرأ الأشعار، وتكره الروايات التاريخية. وأن (الكاهنة) قابلت جده، فضحكت له، فواقعها، فقال لها: خذي ما شئتِ من التراب.

---

[1] علي الشرقاوي - ديوانه: نخلة القلب، ص 29.
[2] عز الدين المناصرة - ديوانه: الخروج من البحر الميت - الأعمال الكاملة، دار الشباب - قبرص 1987.

ومن الواضح أن المناصرة يتحدث من خلف قناعه (البحر الميت) عن شجرة العائلة بالرموز والألغاز، وأنه يذكر تاريخه مذ كان بحراً عربياً أيام الكنعانيين والفراعنة، حتى اليوم الذي جاءت فيه «الكاهنة» ففتحت لجده ساقيها، فواقعها، وقال لها خذي ما شئت من الأرض. فباع أرضه وتاريخه مقابل لذته، وهي إدانة واضحة لجدّه:

بين النخل وكلاب البحر
أصرخ والصقور تجرحني: صَحْرماء، صحرماء، صحرماء
وبطبيعة الحال: لم يسمعني أحد